الفصل الأول

الناس من جهة التمثيل أكفاء
أبوهم آدم والأم حـــــواء وان
يكن لهم في أصلهم شـــــرف
يفـــاخـــرون به فـــالطين والماء

الإمام الشافعي

أصل الإنسان الأول والمذهب الأسطوري

على الباحث في تاريخ أمة من أمم الدنيا أن يبحث أولاً في أصل الإنسان جملة، وكيف انتشر أبناؤه في الأرض؟ وما علاقة بعضهم ببعض في سائر الجهات؟ وبذلك يعرف حقيقة الأمة التي يبحث في تاريخها.

وللبحث في أصل الإنسان ثلاثة منابع يستقي منها الباحث مشربه ويشفي منها علته وإلا انتقل إلى مشرب آخر ليروي غُلَّتَهُ.

المنبع الأول هو المنبع الأسطوري شفهيّاً كان أو كتابياً.

المنبع الثاني هو المنبع الديني السماوي.

المنبع الثالث هو المنبع التطوري والتاريخ الطبيعي.

المنبع الأسطوري أصل تاريخ الأمم فيما قبل التاريخ

أما المنبع الأسطوري فذلك الذي يرويه كل أخلاف عن أسلافه، ينقله الابن عن أبيه والأب عن جده دواليك.

ويسود المذهب الأسطوري كثيراً ويعيش طويلاً بين الأمم البدائية التي لا تعرف الوحي ولا تعتمد على الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء منذ عشرة آلاف سنة فضلاً عن أن تعتمد على التاريخ الطبيعي الذي ابتدأ منذ ثلاثة قرون فقط.

ويبدأ العصر الأسطوري من عصر ما قبل التاريخ ويستمر إلى العصر التاريخي وهو ينتقل من الآباء والأجداد الأميين ويستمر حتى ينتهي إلى الأبناء والأحفاد الكتابيين.

وسواء تناول الكتابيون هذا التاريخ وكتبوه بعد التصحيح والتنقيح والغربلة والتحقيق أم تناولوه وكتبوه وسجلوه بغير التصحيح والتنقيح والتحقيق.

والذين يتناولون كتابة تاريخهم بالتصحيح قبل التسجيل كانوا على قسمين: -

قسم اعتمدوا على الكتب السماوية في تصحيح تاريخهم الأصلي أو الفرعي فاهتدوا.

وقسم اعتمدوا على البحث العلمي في التاريخ الطبيعي فعميت عليهم الأنباء حيث انتهى بهم البحث العام إلى غاية صعب عليهم فيها ربط العام بالخاص الذي يعنيهم.

الذين صححوا تاريخهم على ضوء الكتب السماوية

١ - **المصريون** في مذهبهم الأسطوري القديم كانوا يزعمون أنهم أصل الخلائق، وكانوا يعبدون إله الشمس الذي يسمونه أوزريس الذي قتله أخوه ست فصارت زوجته أوزيس تبكيه وكان من دموعها نهر النيل.

ولما اهتدوا إلى أن خصبهم ورخاءهم كان من فيضان النيل ظلوا يعبدون النيل ويقدمون له كل عام أحسن بناتهم رجاء أن يفيض عليهم بغزارة مياهه فيكون عليهم خصبًا ورخاء[1].

ثم بدأ المصريون يصححون تاريخهم بعد ظهور الأنبياء فيهم، وأولهم هرمس المسمى إدريس ثم إخناتون الملك النبي أو الحكيم، ثم جاءهم موسى

(١) كتاب الله للعقاد ص (٣١).

من بني إسرائيل بالتوراة ثم عيسى بالإنجيل فنقحوا تاريخهم على ضوء ما جاء به هؤلاء الأنبياء، وجمعوا إليه ما عثروا عليه من آثار الفراعنة من كتابة هيرغليفية صارت فيما بعد أصل الحروف الكتابية في العالم.

٢- **والفرس** كانوا يعتقدون أنهم أول الخلائق وأن جدهم الأعلى اسمه كيومرت، ولما اتصلوا باليهود وتوراتهم صححوا هذه العقيدة وحولوا كومرت إلى آدم أبي البشر[١].

ثم جاءهم نبيهم (زَرَادَشْت) الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد فكتب لهم ما يشبه الكتب السماوية بالكتابات الفارسية القديمة.

٣- **والاستراليون** كانوا يزعمون أنهم أصل الإنسان الأول، وأن شخصًا اسمه (بونجيل) هو الذي خلق الكون والأرض وفي يده سكين كبير جرح به الأرض فتولدت الأنهار والتلال ويظهر أنهم حولوا قصة (بونجيل) في أسطورهم إلى قصة آدم وبدء الكون على ضوء ما تعلموا من التوراة بعد اتصالهم بالإنكليز واعتناقهم الديانة النصرانية.

٤- **والصين** يرون أنهم أول الخلائق ومن عندهم انتشر الناس إلى سائر أنحاء المعمورة[٢] وزعموا أن وجه الأرض كان مغطى ببحر تسبح فيه دودة هائلة فخطأ الخالق فوقها فقبض قبضة من التراب وقال: -

سأصنع الأرض من هذا وسكانها، فقالت تلك الدودة: أتقدر أن تصنع أرضًا مَأْهُولَةً من هذه القطعة الصغيرة من التراب انظرني أبتلعها فابتلعتها

(١) طبقات الأمم لجرجي زيدان ص (٦٨) والملل والنحل للشهرستاني من جـ٢ صفحة ٦٠ إلى ما بعدها تعليق/ أحمد فهمي محمد.

(٢) طبقات الأمم لجرجي زيدان ص (١٦١).

ولكن هذه الكتلة من التراب خرجت من جسمها بإرادة الآلهة الثلاثة هم: الخالق الذي لا يتم شيء إلا بإرادته، وإله الخير (إله الحياة) وإله الموت.

قلت: لم يظهر في الصين نبي مبعوث إليهم ومنزل عليه الكتاب من السماء.

غير أن طائفة منهم اعتنقوا البوذية وطائفة اعتنقوا النصرانية وأخيراً أسلم منهم طائفة أخرى فتوزعوا في اعتقادهم بأصل الإنسان على حسب ما اعتنقوا من الأديان (البوذية والنصرانية والإسلام).

ويدعي **اليابانيون** في مذهبهم الأسطوري أن بدء الخليقة كان فيهم وأنهم أول الخلائق وساروا على هذه العقيدة حتى ظهر فيهم حكيمهم (كونفوشيوس) ولم يكن نبيا لأنه لم يتكلم في الإلهيات ولا في النبويَّات ولا في السمعيات.

ولكنه تكلم في الأحكام ووضع لهم شريعة تشبه الشريعة السماوية.

●●●

أسطورة اليرباويين في نيجيريا

والمحاولة الأولى لتصحيحها على ضوء القرآن

واليـرباويُّون في جنوب نيـجيـريا يزعـمـون أن أهل مـدينة إليـفى أول الخلائق، وأن منهم نزح الناس إلى كافة أنحاء المعمورة وقالوا: -

إن الله رب السماء واسمه **أودوماري**.

أرسل ابنه المسمى **أودودوا** إلى الأرض ليخلف أباه فيها.

فهبط هذا الابن من السماء إلى المكان المسمى إليفى.

وهبطت معه زوجته المسماة **أولوكن**.

ومعنى **أودوماري**: العظيم الذي ليس فوقه شيء أعظم منه.

ومعنى **أودودوا**: الخالق الذي خلق الكون كله والإنسان والحيوان.

ومعنى **أولوكن**: الإله صاحب البحر المحيط.

ومعنى **إليفى**: مبدأ اتساع الأرض اليابسة بين البحار.

هكذا سجله صمويل جونسن أول من كتب تاريخ يوربا بالإنكليزية عام ١٨٧٩م[١] على أن هذه الأسطورة قـد عـاش على اعـتـقـادها اليـرباويون البسطاء ويعيش عليها أنصاف العلم إلى يومنا هذا.

---

(١) تاريخ يوربا ص (١٤٣) وما بعدها وأسطورة نيجيريا لميكل كراوثر ص (٥٣).

غير أن العقلاء منهم حاولوا تصحيحها على ضوء ما تلقوه من المسلمين الذين عرفوهم حوالي القرن الثاني عشر الميلادي.

حيث تجلى لهم أن الدنيا لا تنتهي في حدود بلاد يوربا حسب أوهامهم الأولى، وأن هناك عالما واسعًا لا يدري أين بلاد يوربا ولا من هم قبائل يوربا.

وعلموا أن هناك أرض بابل التي تملك فيها نمروذ بن كنعان أعظم ملك في الدنيا القديمة وأن هناك مكة المكرمة التي ظهر فيها الإسلام أيام النبي محمد.

ووقفوا على آثار ثقافات الأمم وحضارات الدول في مصر واليونان والرومان والعرب والفرس فأرادوا ربط أنفسهم بهذا العالم الحضاري الواسع الراقي، غيروا عقيدتهم الأولى وحولوها إلى أن جد اليرباويين نزح من الشرق إلى هذه المدينة وهو من عشيرة نمروذ ملك بابل وأنه مر على مكة المكرمة أو على مصر العليا ومنها إلى هذه البلاد.

فكانت هذه هي المحاولة الأولى لتصحيح أسطورة يوربا على ضوء الاتصال بالقرآن.

المحاولة الثانية على ضوء التوراة

أول من كتب تاريخ يوربا بالإنكليزية رجل يرباوي من أهل عويو، وهو أسقف كبير للكنيسة الأنكليكانية اسمه صمويل جونسن.

هو الذي سجل الأسطورة الكاذبة الأولى، ثم تراجع عنها وسجل المحاولة الأولى لتصحيح الأسطورة كما ذكرنا ثم حاول هو بنفسه أن يربط

يوربا بالديانة النصرانية ولكنه رجل عاقل لم يذهب في الأمر بعيدًا حتى رجع وترك بعض افتراضات وتخمينات خفيفة حول الموضوع وترك الأمر لمن بعده منذ ١٨٧٩م أي منذ قرن.

إلى أن جاء رجل في الآونة الأخيرة من أهل مدينة إليفى اسمه **ادي ماكينوا** وكتب في أوائل الستينيات كراسة سماها مدينة إليفى مهد اليرباويين ثم كرر وقرر أنها ليست فقط مهد اليرباويين ولكنها مهد الإنسان الأول.

هو رجل نصراني وثقافته كلها إنكليزية ومستواه الثقافي أضعف وأقل بكثير من مستوى سلفه (صمويل جونسن) كما هو ظاهر فيما كتب الاثنان.

حاول هذا الرجل إثبات ثلاثة أشياء:

أولاً: حاول إثبات الأسطورة كما هي عند البسطاء الجهلاء أن مدينة إليفى هي المهد الأول للإنسان[١].

ثانيًا: حاول إثبات القول بتعدد أصل الإنسان في مختلف الأماكن ولم يؤمن بأن آدم أبا البشر هو الإنسان الأول لسائر البشر، وأتى بأمثلة ذلك من آدم وملكى صادق والنبي عيسى وجد يوربا أنهم خلقوا بدون أبوين.

ثالثًا: حاول إخضاع نصوص التوراة لعقيدتهم الأسطورية ولم يحاول إخضاع الأسطورة لنصوص التوراة.

فحمل النصوص ما لا تحتمل ولا يوافقه في ذلك اليهود والنصارى في العالم.

---

(١) راجع مدينة إليفي مهد اليرباويين ص (٢٤) وما بعدها حتى (٢٧).

أفيكون هذا الرجل أعلم بالتوراة من جميع الأنبياء الذين عاشوا زمن النبي موسى وأعلم من جميع الأنبياء والأحبار الذين أتوا من بعد موسى حتى جاء عيسى ومن بعده من الحواريين ولم يحيطوا علمًا بمدينة إليفى ولا بوجود قبائل يوربا فيكون هو أول من يحمل نصوص التوراة على قبائل يوربا . . كلا وألف كلا .

قصة النبي آدم ونوح مع قصة أودودوا

قال هذا الرجل عن قصة ابني آدم قابيل وهابيل ما نصه : -

إننا قرأنا في سفر التكوين الرابع آية ١٦ ، ١٧ : -

(فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن فعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك فكان قايين يبني مدينة فدعا اسم المدينة باسم ابنه حنوك وولد لحنوك عيراد) اهـ.

قال هذا الرجل معلقًا على هذا النص من التوراة :

إذا كان آدم وأسرته هم وحدهم الذين يعيشون في الأرض بذلك الزمن وكان هابيل قد قتل ومات .

ثم فر قابيل إلى أرض نود التي لم نعرف عنها شيئًا قبل ذلك ، فكيف عرف قابيل السبيل إلى تلك الأرض حتى يتزوج ويبني بيتًا وينجب ولدًا هناك إن لم يكن هناك قوم فلا يفر إليهم قابيل لاجئًا .

والواضح أن آدم لما كان يعيش مع أسرته في مكان كان هناك قوم آخرون يعيشون في أماكنهم تحقق ذلك في (٢٤) من كتاب الرجل .

فهل كان هذا الرجل مؤمنًا حقاً بالكتاب المقدس؟ كلا وألف كلا.

وعلاوة على ذلك يقول هذا الرجل:

إن الله الذي خلق آدم بدون أبوين وخلق ملكي صادق بدون أبوين لقادر على أن يخلق مثلهما في أي مكان وأي زمان كما خلق **أودودوا** الجد الأعلى لليرباويين بدون أبوين وكذلك خلق أتباع **أودودوا** الذين صاروا آلهة يعبدهم الناس في إليفى فكلهم خلقوا بدون أبوين)[1].

أقول: أرأيت أن هذا الرجل يؤمن بالكتاب المقدس الذي قرر أن آدم أول من خلقه الله من البشر على وجه الأرض ثم خلق منه زوجه ثم بث منهما رجالاً كثيراً ونساء.

ولقد أثبت الوحي والعقل والكشف العلمي أن أصل الإنسان واحد لا متعدد إنما يغير لونه وطباعه المناخ والإقليم.

وأوضح العلماء أن انتشار الناس في الأرض نشأ من الهجرات التي اشتركت فيها الحيوانات البرية والأسماك البحرية والطيور الجوية قبل انفصال القارات بعضها عن بعض.

ثم أغار هذا الرجل على قصة سيدنا نوح وسفينته ونهب جواهرها لمدينة إليفى وأهلها على حساب أسطورتهم الكاذبة وقال:

إن سفينة نوح التي رست على جبل أراراط حسب نص التوراة.

قال هذا الرجل إنها رست على جبل في بلاد إليفى اسمه عوره ونسب إلى جبلهم هذا خرافات وخزعبلات.

---

(١) راجع مدينة إليفى مهد اليرباويين ص (٢٤) وما بعدها حتى (٢٧).

ولا أزال أتعجب من رجل في القرن العشرين ينتسب إلى العلم ويأخذ القلم ليكتب كل ذلك.

خلاصة القول

وبعد ما حكينا للقارئ نماذج من أساطير البدائيين في مختلف الأجناس من مختلف الأقطار والقارات.

وكل منهم يدعي على أنه أول الخلائق وأن بلده هو المهد الأول للإنسان.

وحكينا ما يزعمه أهل إليفى منذ ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخي حتى القرن العشرين الحالي ومنهم من يؤمن بتعدد أصل الإنسان، ومنهم من يؤمن بأن أصله واحد. أحببنا أن نقرر للقارئ أن خلق الإنسان الذي هو أرقى جميع المخلوقات في الكون وأكرمها على الله، لا يمكن أن ينبني على الأساطير والخرافات والافتراضات والتخمينات بل ينبني على النقل الصحيح الذي يقبله العقل السليم، وما كان خالق الكون ليترك ذكر ذلك لأنبيائه عن طريق الوحي والكتب السماوية التي نزلت من خالق الكون.

وإذا احتاج الأمر إلى التكميل فإن ذلك يكون فرعًا مناسبًا للأصل الثابت، فيكون هناك الفرع مكتوبًا عن المشاهدة بالعيان أو عن المسجلة المحققة بالبيان.

أما الأصل الثابت فلا بد من أن يكون من الوحي والكتب السماوية المنزلة، لذلك نرجع الآن إلى أقدم تلك الكتب السماوية المعتمدة وهو التوراة فنقول في الفصل التالي.